إسلاميات
كاتب
مسيحي

3

محمد في حياته الخاصة

«زواج النخوة.. لا زواج الشهوة»

obeikandl.com

obeikandl.com

فى بداية كتابه «محمد فى حياته الخاصة»...يبدأ نظمى لوقا بتنبيه مهم،يقول فيه:«مؤلف هذا الكتاب مسيحى المولد والمعتقد،وما كنت بحاجة إلى هذا التنبيه،لولا أن نفرا من الناس ذهب ظنهم إلى أن إنصاف عقيدة من العقائد لا يمكن أن يصدر إلا عن شخص يدين بالعقيدة التى يدفع عنها الافتراء، وبالتالى لا يدافع عن الإسلام أو ينصفه إلا مسلم».

ويشير نظمى لوقا إلى أن هذا ظن باطل،ويقول:«ليست كتبى هذه كتبا دينية فى جوهرها ومنهجها وغايتها الأصيلة،وإن عالجت أمورا تتصل بالدين،فالغرض الأول منها الحث على نزاهة العقل والضمير بصفة عامة،والنظر فى سائر الأمور نظرا موضوعيا مبرأً عن التحيز والتحامل،بحيث يكون التفكير الإنسانى أشبه بما يدور فى معمل التحليل الكيماوى،لا تتأثر نتيجة تحليل الدم إلا بالعناصر التى يتكون منها الدم فعلا،ولا دخل فى هذه النتيجة لأن تكون قطرات الدم لذى القربى أو لأبعد الغرباء».

وهذه النزاهة الموضوعية - كما يراها نظمى – أسمى منهج عقلى متاح للبشر،وهى أشق ما يكون حين يتصل الموضوع بالعواطف الشخصية،ولا سيما المعتقدات،لأن التجرد من هذه المؤثرات الذاتية جد عسير،ولهذا السبب تعمد البحث فى الإسلام جاعلا من هذا الموضوع نمطا للمنهج العام الذى أدعو إليه،وليكون حجة ومثلا على الموضوعية المترفعة عن التحيز.

وإذا كان المنهج الموضوعى الذى اتبعه نظمى لوقا،يسمح للدارس بغير اعتراض أن يكتب عن الكواكب البعيدة من غير أن يكون من سكانها،وعن المعادن من غير أن يكون ضربا من الحديد أو النحاس،وعن السيارات من غير أن يكون سيارة.

ويختم نظمى لوقا تنبيهه:«فأى عجب أن يكتب بهذا المنهج الموضوعى عن

الإسلام من ليس فى عداد المسلمين،إلا أن الإنصاف النزيه أثمن فضائل الإنسان،وهو أجدر أن تتصف به نظرتنا إلى الأمور كافة،بما فى ذلك الأديان التى ندين بها أو يدين بها سوانا،وفى مرجوى أن يقرأ القارئ صفحاتى بمثل الروح التى كتبت بها...وسلام على الصادقين».

وبعد هذا التنبيه يهدى نظمى لوقا كتابه إلى السائرين فى الظلمة،وإلى من يلوح لهم من أنفسهم فجر جديد،وأيضا إلى صوفى عبد الله – زوجته – التى وصلته وقد قطعه الناس،وواساته وشددت من عزمه،وكانت سكنا لنفسه وملاذا،قالت له:لا تهن يا رجل حين أقبلت المحن كأنها قطع الليل،فهى بالنسبة له:«خير زوجة وخير صديق وخير أم،خير شريكة هى فى أمانة الفكر وأمانة القلم وأمانة الحياة».

(١)

على جناح كلمة هنريك أبس «لم آت لأدعو خطاة إلى التوبة بل الأبرار»...يدخل نظمى لوقا إلى فصله الأول عن معنى الشرف والشرفاء.

وفيه يرى نظمى أنه ينبغي أن يكون للفضل عرض عام وشرف مشترك مشاع بين الفضلاء والشرفاء على تباينهم فى الرأى والعقيدة،ومن لم يشعر بالتأذى والغضب لفرية تصيب خصيمه أو المخالف له،فماذا يبقى له من معنى الشرف والمروءة.

يقول نظمى:«إذا أحببتم من يحبونكم فقط فأى فضل لكم؟...وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم فقط فأى فضل لكم؟...هكذا قال السيد المسيح،فى رسالة المحبة العظمى،ومن يسأل هذا السؤال حرى أن يسأل كذلك:إن غضبتم غضب الغيرة على شرف من يشاركونكم الرأى فقط،فأى فضل أو مروءة أو شرف يبقى بينكم؟...إن الحماسة للحق أينما كان،ولمصلحة كائن من كان،والغيرة عليه هى

لباب الشرف القديم،فما الشرف إن لم يكن تجاوز أشخاصا المحدودة إلى قيم عامة،لا يعنينا أن تكون مغانمها لنا أو لسوانا،ويعنينا الدفاع عنها حين تهدد،سواء كان الدفاع عنها دفاعا عنا أو عن سوانا؛لأن الحق هو الذى يبتغى وجهه،والإنصاف هو الذى يبقى عليه،ولا بقاء لنا إذا تداعى الصدق والعدل،وضاعا بين الناس فى غمار المهاترات والسخائم».

ويذهب نظمى لوقا إلى أنه متى تكون الغيرة فى موضعها الصحيح،إن لم تكن على سمعة هاد من هداة البشرية،طالما نال منه المفتاتون بلا تورع ولا حياء؟،ومتى لا تستغرب الغيرة إذا كانت تستغرب فى مثل هذا المقام؟،فأى الناس أولى بنفى الكيد عن سيرته من أبى القاسم الذى حول الملايين من عبادة الأصنام الموبقة إلى عبادة الله رب العالمين،ومن الضياع والانحلال إلى السمو والإيمان،ولم يفد من جهاده لشخصه أو آله شئيا مما يقبل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام.

ويفصل نظمى لوقا ما يريد أن يفعله يقول:«حفاظا على معنى الشرف وصيانة لحق المروءة أوجبت على نفسى ذلك الإنصاف لشخص أبى القاسم،أوجبت ذلك على نفسى منذ عرفت قدره وأدركت خطره،والواجب فرع عند ذوى الأمانة عن الإدراك،فشهادة الحق من أوجب الأمانات،والساكت عن الحق شيطان،فمن يجهل لا لوم عليه،والملام كل الملام على من يدرك الحق كرائعة النهار ثم يتخاذل عن إعلائه،ويترك رايته تنتكس بين السفلة والطغاة،وتوطأ بأقدام الجهلة والظلمة واللئام،وساء ذلك صنعا،إنه إثما وبيلا».

(٢)

تحت عنوان الأمية والجهل،يبدأ نظمى لوقا دفاعه عن الرسول صلى الله عليه وسلم بآية كريمة:﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ،ويقول:«هذه الآية يستفاد منها على الأرجح أن المقصود بالأميين،أهل الأمم من غير بنى إسرائيل الذين كانوا يسمون أنفسهم الشعب المختار،الذى اختص بالهداية والنبوة،وأن غيرهم من أبناء سائر الأمم «أمميون» أو «أميون» لا نبوة فيهم ولا هداية لهم،فجاءت هذه الآية لتقرر مـ شمل الله به الأميين من الرحمة إذ أرسل فيهم رسولا منهم».

لكن المستشرقين وسائر المغرضين آثروا الأمية بمعنى عدم القراءة والكتابة،وهى صفة غير منكورة للرسول العربى الأمى،وقد آثر نظمى لوقا أن يسايرهم تعقب لحجتهم وتوسلا إلى إفحامهم.

يقول:«ليس كل أمى جاهلا،وليس كل جاهل أميا،فالأمى من لا يقرأ ولا يكتب،والجاهل من لا يعلم ما ينبغى أن يعلم،وليس العلم كله منوطا بقراءة وكتابة،وليس كل ما هو مكتوب مقروء علما يكون الجهل به وصمة تنتقص من قدر من لا يقرأ ولا يكتب».

فهناك كثيرون من الناس يجهلون ذلك الفرق بين الأمية والجهل،فيترددون فى ذلك الخلط بلا تبصر؛لأنهم تعودوا أن يجدوا القراءة والكتابة باب التعلم المطروق منذ النشأة،وغاب عنهم أن العلم ما علمت،لا ما تعلمت.

والخلط الأبله – كما يرى نظمى – بين معرفة القراءة والكتابة (وهو ما يسمى فك الخط) وبين العلم،بدأت تظهر لنا سخافته ظهورا فاضحا،عندما حصل لدينا تضخم فى الإجازات العلمية،يقابله ضمور فى العلم،فصار صاحب الإجازة الجامعية فى كثير من الأحيان أجهل من الحاصل على الشهادة الابتدائية قبل ربع قرن،وتبين لكل ذى عقل عدم وجود ارتباط حتمى بين المعلوم أو المفهوم والمقروء.

والناس يصح عندهم أن يقال: طبيب جاهل وطبيب عالم،ومدرس جاهل

ومدرس عالم،وقانونى جاهل وقانونى عالم،ومهندس جاهل ومهندس عالم،ففى كل صناعة من يفقه ومن لا يفقه،وفى كل فن من يحسن ومن يسىء،والعالم والجاهل فى كل صناعة يأخذان من منهل واحد،وقد يحضران على أستاذ واحد.

فالمعول إذن على العقل الذى يهضم المعلومات أيا كان مصدرها من قراءة أو سماع،ويرتبها ويقيس عليها ويستولد منها،فذلك العقل مختلف جدا عن عقل تصل إليه المعلومات فلا يمحصها ولا يهضمها،ولا يرتبها ولا يقيس عليها ولا يستولد منها،تدخل إليه الملعومات لتظل جامدة على حالها،تحفظ منها ذاكرته ما تحفظ وتنسى ما تنسى،فهى أشتات جزئية مثل حب فى غرارة.

ويصل نظمى لوقا إلى مراده ومبتغاه يقول:«وليقرأ من شاء صفحات التاريخ الحديث ولا سيما فى الشرق،وليقف مليا عند رجال لا يمكن أن تنكر عبقريتهم وهم أميون،دليل ملموس إذن،وقد شاع التعليم شيوعا كبيرا فما بالك بزمن عبر فى بادية قفر،الأمية صبغة أهلها الغالبة،والقراءة والكتابة صفة نادرة قلما تتوفر لإنسان منهم».

ويجزم نظمى:«أحمق إذن ولا شك من يتوهم الجهل فى رجل دانت له الرجال،ومنهم الأمى وغير الأمى،أقنعهم بدعوته،وأفحمهم بحجته،وتبعوه فازدادوا به إيمانا،حتى لقد فدوه ودعوته بأرواحهم راضين،كيف يصح فى عقل بشر أن هذا الرجل متصف بالجهل،ولو من غير نظر فى كلامه المحفوظ وسيرته المأثورة،مسكين من يطلق هذه التهمة إلى أمية أبى القاسم،وليس المسكين هو المرمى بهذه التهمة الرعناء».

ويسأل نظمى لوقا:ماذا عساهم يفيدون من ذلك اللغط الغث؟

ويجيب:«جواب هذا السؤال لا يكون بالتنقيب عن تلك الفائدة بمنطق العقل

للنزيه المستقيم،بل يتقمص عقلية المفترين الملتوية وباستخدام منطقهم اللئيم،إن هدفهم الأول ليس الكسب الحقيقى أو الموضوعي بل مقصدهم الأول إرضاء باعث داخلى لديهم،إرضاء سخيمة تستقطب التهجم على سمعة إنسان شريف كريم،لتنال من سمعته وتنتقص من حميد صفته،ولا يقعدهم عن ذلك القصد أن الإهانة لا تلحق الكريم فى نظر من لهم عقول تحس وزن الأقدار.

إن أصحاب هذه الفرية يطمعون أن تنطلى على لبيب،ولكن حسبهم أن تنطلى على الغافلين،فيحول ذلك بينهم وبين سلامة التقدير للرجل المبغوض،ولا عليهم أن يضار بذلك الافتراء وتلك المغالطة فى واقع الأمر من يصدقونهم ويتابعونهم فى الضلال؛لأن من يغلق عينيه دون النور،يضير عينيه ولا يضير النور،ولأن النور منفعة للرائى لا للمصباح،وللمهتدى به لا الهادى،وقديما قالوا على أهلها جنت براقش،وما من زمان أراه يخلو من براقش».

(٣)

وبعد تهمة الجهل التى دفعها نظمى لوقا عن الرسول صلى الله عليه وسلم،يفند تهمة أخرى لحقت بالرسول،وهى تهمة جموح الشهوة وتعدد الزوجات.

يقول:«بعد فرية الجهل اتجه المفرون إلى نقيصة أخرى تقوض الميزة الخلقية،وتطعن الرجل الشريف فى مروءته وصفته الإنسانية التى يعتز بها كل من ينأى بنفسه عن درك الحيوان البهيم،ومنطقهم فى هذه كتلك،مقدمة سليمة ومسلم بها،يؤسسون عليها مقدمة أخرى مغلوطة،لتلقح إحداهما الأخرى،وتخرج من اجتماعهم أكذوبة شوهاء،تلدها العقول المتهتكة وتشيعها الألسنة الآفكة».

مقدمة سليمة:محمد تزوج عددا من النساء،واقع مشهود به لا ينكره ولا يفكر فى إنكاره أحد،يتناولونه فى براءة مصطنعة وخبث مبيت ليقولوا بعدها:وليس زوج

الواحدة سواء وزوج العدة من النساء،زوج الواحد ملجم الشهوة،وزوج العدة من النساء جامح الشهوة مطلق العنان،لا يطيق منع نفسه من طلب النساء،أو هو لا يريد أن يمنع نفسه من طلبهن ما دامت الفرصة متاحة لما يشتهيه من الإباحة،والنتيجة الطبيعية لهذا الكلام أن محمدا كان رجلا شهوانيا،لا صبر له عن النساء،ولا كابح له عن الاستكثار منهن.

وعندما تعرض نظمى لوقا إلى هذه الفرية،فهو لم يتعرض لها من منظرها،بل من أساسها الذى بنيت عليه،تعرض للمقدمة المدسوسة التى خلطت بين الكم والكيف،وبين التعدد وجموح الاشتهاء،وهو خلط قريب المدخل عند من لا يدققون الفهم ولا يفرقون بفطنة بين المظاهر المادية والبواعث النفسية التى هى أمور باطنة لا تأخذ العين العابرة ما لم تؤيدها بصيرة نافذة.

وينفذ نظمى مباشرة إلى ما يريد أن يقوله.

يقول:«صاحب الزوجات الكثيرات يجمع بينهن قد لا يكون شهوانا؛لأن المعول على ما يكون فى نفسه من نوع الصلة والارتباط بهن،فإن كان ذلك الارتباط ارتباطا تعلق بلذة المضاجعة قبل كل شىء،فالرجل شهوانى بسبب تعلقه بتلك اللذة،لا بسبب كثرة عدد من فى عصمته من النساء.

أما إن كان صاحب الزوجات الكثيرات مرتبطا بهن برباط لا يقوم على طلب اللذة قبل كل اعتبار،بل يقوم ارتباطه بهن على الأواصر الإنسانية السامية من مودة ورحمة وبر ورعاية وحدب وتكريم للشخصية الآدمية للمرأة،فالرجل ليس شهوانى لعدم ابتناء صلته بالمرأة على اللذة البهيمية،بصرف النظر عن عدد من فى عصمته من النساء.

وبهذا المقياس عينه ننظر إلى صاحب الزوجة الواحدة،فإن كانت صلته النفسية

الباطنة التى تربطه إليها صلة تراحم وإيثار وتكريم للشخصية الآدمية فى المرأة،فالرجل ليس شهوانى بسبب إحساسه وصلته الباطنة بالمرأة عموما،لا بسبب اقتصاره على امرأة واحدة،أما إذا كان صاحب الزوجة الواحدة يصدر فى ارتباطه وتعلقه بها عن عنف طلب اللذة لذات اللذة،فالرجل شهوانى بهيم بصرف النظر عن عدم تعدد من تنصرف إليهن وتنصب عليهن شهوته الجامحة من أفراد النساء.

والرجل الشهوانى هو الذى يكون ارتباطه بالمرأة وطلبه لها لأنها أنثى؛لأنها أداة غفل لقضاء الرغبة الغريزية،وقيمتها عنده رهن بما تتيحه من درجات تلك اللذة،أما إذا كانت المرأة عنده ذاتا،وكانت صلته بها صلة الإعزاز الشامل والمودة السابغة،فطلبه لها ليس طلبا بهيميا أعمى،بل هو تكميل للمودة وتتويج للإعزاز فى مظهره الحسى الأقصى،هكذا يكون الترابط بين جنسى الإنسان،ترابطا لا ينحط بهما إلى درك الحيوان،وشتان رغبة نملكها ونستخدمها،ورغبة تملكنا وتستخدمنا».

ثم يصل نظمى لوقا إلى دفاعه المباشر، يقول:« وما كان محمد رجلا هزيل الحيوية واهن الوظائف،ولكنه كان يملك حيوية ولا تملكه حيويته،ويستخدم وظائفه ولا تستخدمه وظائفه،فهى قوة له تحسب فى مزاياه،وليست ضعفا يعد فى نقائصه.

لم يكن أبو القاسم معطل النوازع،ولكنها لم تكن نوازع تعصف به؛لأنه يسخرها فى كيانه المستوى الذى يكرم به الإنسان حين يطلب ما هو جميل وجليل فى الصورة الجميلة الجليلة،التى لا تهدر من قدره بل تضاعف من تساميه وطهره،وبيان ذلك فى أمر بنائه بزوجاته التسع».

وهو التفصيل الذى خصص له نظمى لوقا بابا مستقلا من كتابه،بعد أن أوضح المبدأ،وأقام ميزان النفس متميزا عن مغالطة الإحصاء العددى لمن فى عصمة الرجل من نساء.

(٤)

وكأنه يفكر بصوت مرتفع،يقول نظمى لوقا:«تسع زوجات جمع بينهن محمد...عدد ليس بالقليل».

لكنه يتدارك قوله ذلك بأن العبرة ليست بالعدد،ولكن بالظروف التى أفضت إلى الجمع بينهن،ومنها ظروف اجتماعية ترجع إلى الأحداث التى كان هو محورها،ولا يملك أن يعفى نفسه من المسئولية والالتزام ببعض أثارها،ومنها ظروف نفسية مرجعها إلى عواطف ومراميه.

ويبدأ نظمى بتفصيل هذه الظروف من تقديره للمرحلة الطويلة من عمر أبى القاسم قبل زواجه من التسع نساء اللواتى جمع بينهن،وهى مرحلة مداها ربع قرن من الزمن،هى فترة الشباب العارم،والرجولة الفتية،ولم يكن فيها زوجا للعدد العديد من الحريم،بل بعل امرأة واحدة هى خديجة بنت خويلد.

بعل امرأة واحدة تكبره بخمسة عشر عاما،تزوجها وهو فى الخامسة والعشرين،وتزوجته وهى فوق الأربعين،وقيل : وهى تناهز الخامسة والأربعين،وماتت وهى فوق الخامسة والستين على الأقل،وكان هو فى الخمسين.

ربع قرن لم تكن فيه هذه الزوجة الواحدة مقنعا لشاب فى سن ابنها،لو كان هذا الزواج أخا شهوة لا نقول جامحة بل نقول متوقدة ذات سلطان على نفسه،ربع قرن لم تكن فيه الزوجة الواحدة فرضا مفروضا عليه،والبئية لا تعرف إلا التعدد الذى لا حصر له،وليس التوحد فى الزواج قيمة متفقا عليها فى ذلك الزمن.

ومع ذلك لم يتزوج محمد طيلة تلك الفترة الطويلة إلا خديجة المسنة،ولم ينشد سواها صاحبة بزواج أو بغير زواج،ولم يكن أخا لهو وشراب ومجون وميسر،كسائر نظرائه من أبناء البيوت المرموقة فى قريش لتلك الحقبة من الزمن.

ولو كان محمد أخا مجانة لما كان ذلك مستغربا لدى أحد،إلا أنهم كانوا جديرين بأن يتشدقوا به أول ما يتشدقون بالمطاعن على الرسوم يوم نهض بالدعوة إلى عبادة الله،وما يبنى عليها من التعفف والاستقامة والطهر،كانوا جديرين أن يتصايحوا أول ما يتصايحون:ما هذا الذى خرج علينا به محمد من الدعوة إلى العفة وهو الذى عهدنا عليه كذا وكيت؟

وما كانوا ليتورعوا عن التلفيق فى التهم،فما الذى أسكتهم عن هذه لو أنه كانت صحيحة مشاهدة؟ولكنها لم تخطر ببالهم على كثرة ما رموه لسبب واحد لا يعقل سواه،إنه كان فى سلوكه الشخصى على نقيض ذلك،وكان مشهورا بإلتزام العفة والطهر والبعد عن الشبهات،ناهيك عن الفواحش والموبقات،فوقفت شهرته حائلا دون الافتراء على لسان معا ﷺ ومناهضيه من أولياء الكفر فى قريش.

ويذهب نظمى لوقا إلى أن سن الخامسة والعشرين التى تزوج فيها محمد من خديجة ليست بالسن الصغيرة فى بيئة شبه بدوية كبيئة قريش،فهى سن متأخرة للزوج،وكان محمد معروفا بالوسامة،ولكن حياته إلى أن تزوج كانت خالية من المغامرات المعهودة يومئذ،فكان على غير المألوف حيا منطويا مستقيما.

لقد لقبته قريش قبل زواجه بالأمين،والأمانة التى بهرتهم حتى نسبوه إليها التى تجرى مجرى المثل هى الأمانة فى المال؛لأن ذلك أبرز ما يلفت نظر بيئة من التجار،فى بلد تقوم حياته كلها على التجارة فلا صناعة فى مكة ولا زراعة،ولكن ما الأمانة فى المال؟...هى الصمود للمغريات مع سهولة الوصول إليها،وكذلك كل أمانة فى المال وغير المال،ومنها الأمانة فى الأعراض.

إن القوة النفسية التى تجعل صاحبها يصمد لإغراء المال أو الكسب الحرام وهو فقير،هى بعينها التى يمكن أن تتجه إلى إغراء الجنس أو اللذة الحرام،كى تمنع

صاحبها من الزلل،فإذا هو أمين،وما اهتم القرشيون بذلك الأمر من أمور الحياة التى لا يعنى إلا صاحبه،وهو أمر العرض أو الجنس؛لأن المال كان أمرا يتصل بالجماعة كلها،ويعود نفعه وضرره على أناس غير الشخص الأمين أو الشخص الخائن،ولذا كانت أمانة محمد فى الأموال مضرب المثل،وهى فى الواقع أمانة فرعية،أصلها الأمانة الكبرى وهى قوة النفس التى تلجم صاحبها عن تجاوز الحدود وإن كان ذلك التجاوز ميسورا.

وتلك القوة الأصلية الكامنة هى التى ألزمته حدوداً ألا يكترث لها الناس فى تلك البيئة لذلك العهد،وهى حدود العفة فى الجنس،والأمانة فى العرض،لا زوجة يومئذ له ولا رقابة ولا إلزام من العرف بالعفة،ولكنه العفيف الأمين،يضن بنفسه عن خساسة الفحش والفجور؛لأن نفسه المترفعة الصافية كريمة عليه،والكرامة تلزم صاحبها حدود أضيق مما يلتزمه الناس،وأضيق مما تفرضه أحوال المجتمع على سائر الناس،فمحمد الشاب الوسيم غير المتزوج هو الذى فرضت عليه نفسه هذه الحدود المرهقة لكل نفس فى تلك البيئة سواها.

وفى عفة الرسول صلى الله عليه وسلم يقول نظمى:«عفة غريبة المعدن فى تلك البيئة قبل الزواج،على اكتمال فى الشباب،ووسامة فى الخلق،وافتقار لمن شاء أن يتخذ إلى لذته سبيلا،ما القول فى ذلك يا معاشر الحصفاء؟،ألا يتفق ذلك مع عفته وقد تزوج فى الخامسة والعشرين،وعاش خمسا وعشرين أخرى مثال العفة والطهر؟أكان ذلك من آيات الجبن والمصانعة والرياء؟واجبنا من ماذا؟ومصانعة ورياء لمن؟»

ويجيب هو على تلك الأسئلة :«لم يكن تزوج خديجة بعد حتى يصانعها أو يخاف سخطها الذى يتعللون به فيما يفترون،ولكن فترة ما قبل زواجه من خديجة لا يجدون عليها مطعنا،ولذا يتركونها لتكون مطاعنهم كلها بادئة بزواجه،أليست

خديجة ثرية،متقدة فى السن،وهو عامل شاب وسيم فقير على تجارتها،هو إذن فيما يزعمون تزوجها طامعا،وأخلص لها فى حياتها مرائيا مصانعا،حتى إذا ماتت انطلق على سجيته فى طلب النساء،لا يجد من ذلك مانعا ولا رادعا».

هذه الفرية – فى نظر نظمى – من أولها بغير أساس،لقد طلبت خديجة محمدا قبل أن يطلبها محمد،خديجة سعت إلى الزواج من محمد قبل أن يسعى محمد للزواج من خديجة،فأين الطامع هنا..وأين المطموع فيه يا أولى الألباب؟،هل يعتبر طمعا أن ينطوى الشاب على نفسه،ولا تجد المرأة مندوحة من تنبيه إلى استعدادها للزواج منه لميلها إليه؟ماذا تكون العفة إذن؟والنأى بالنفس عن نطاق الطمع والتهالك على المنافع؟

كان فى وسع محمد وهو عاملها على التجارة أن يستغل الظروف للتودد إليها كى يستميل قلبها ويضمن قبولها إياه زوجا على فقره الشديد وثرائها العريض،لو فعل ذلك لجاز أن نقول طامع وصولى اهتبل الفرصة كى يبيع شبابه ويثرى،ولكنه فعل نقيض ذلك على خط مستقيم،عاد إليها من الشام بربح وفير،وأدى إليها الأمانة كاملة،وأخذ نصيبه أو جعله المتفق عليه ثم انزوى بعيدا عنها،إلى أن جاءه رسولها يعرض عليه الزواج منها.

ويذهب نظمى لوقا إلى أنه لم يكن من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعد زواجه من السيدة خديجة ما يدل على إسرافه فى مالها،كما يفعل النفعيون الذين يتزوجون العجائز الثريات،فلم يعمد إلى البذخ فى مظهره،بل كان متواضعا عفيفا،ولم يعمد إلى القصف مع أبناء المياسير إظهارا لثرائه الطارئ،بل ازداد تباعده عن كل ألوان القصف،وزاد زهده فى الرخاء والترف،وصار يقضى الكثير من وقته صائما معتزلا للناس وحده فى الجبل،حتى كانت خديجة تخرج للبحث عنه مع

خدمها،كما تبحث الأم عن ابن لها أقلقها طول غيابه وتحمل إليه هناك الطعام،زاد الرجل بالزواج من الكهلة عفة واستقامة،وزاد الرجل بالزواج من الثرية نزاهة وعزوفا عن البذخ والترف..فأين الطمع ..وأين الوصولية؟

ويواصل نظمى لوقا دفاعه،ضد من يقولون بوصولية محمد بزواجه من خديجة،يقول:«إن كان للوصولية موضع فى حياة خديجة،فلن يكون لها موضع وقد ماتت،فإذا به يحزن عليها حزنا شديدا،وإذا حزنه يطول ويشتد فى حين اشتد عليه اضطهاد القرشيين وإيذائهم لشخصه،وقد زاد من جرأتهم عليه موت عمه أبى طالب فى تلك السنة أيضا،وأدرك المؤمنون القلائل فى ذلك الحين أن نبيهم فى حاجة ماسة إلى من يؤنس وحشته ويخفف عليه أعباء الجهاد ومتاعب الاضطهاد،وأن طفلته الصغيرة فاطمة الزهراء بحاجة إلى عناية الأمهات،وندب المؤمنون لمفاتحته فى ذلك خولة بنت حكيم،فتلطفت فى ذلك،ثم عرضت عليه أن يتزوج.

وحتى يبعد نظمى لوقا شبح الشهوانية عن الرسول،فإنه يسأل عمن تزوجها من يدعون أنه شهوانى وصولى؟

وتأتى الإجابة:«سودة بنت زمعة امرأة متقدمة فى السن ليس لها جمال خديجة،ولا مالها على الإطلاق،ولا جاه،حظها من الذكاء غير كبير،وإنما هى أرملة بدينة طيبة القلب لها مشية كان زوجها العظيم يضحك منها،وكانت فيها دعابة وليس للرجال فيها مأرب».

وهنا يظهر سؤال آخر،وهو لماذا تزوجها محمد إذن؟

وتأتى الإجابة مرة أخرى:«لأن زوجها كان من أصحابه القلائل الأولين،وهاجر بها إلى الحبشة فيمن هاجر،وقيل : مات هناك،وقيل : عاد من المهجر معها فمات وبقيت سودة أرملة منقطعة،وقد بت إسلامها ما بينها وبين

أهلها،ويخشى أن يردوها عن الإسلام وقد عادت إلى بيت أبيها،وليس لها ما تعيش منه ولا صنعة بيدها،وما كان أحرى ذلك الوارث أن يعوض ما فات عليه فى ربع قرن من اللذات،لو أنه كان الرجل الذى يزعمون.

ويختم نظمى لوقا دفاعه عن الرسول قائلا:«فمن ذا الذى يصانعه محمد،وهو يفى لخديجة هذا الوفاء الجميل،الذى يستحق أن يكون مضرب الأمثال لسائر الأزواج،أتراه كان يصانع التى ماتت ليغضب التى يعيش معها ويحبها؟ما القول فى هذا الوفاء المعجز،والدنيا حافلة من حولنا بأمثلة العقوق ونسيان الفضل وخيانة العهد.

فليقل من شاء ما شاء،ولكن لا حيلة فى نسبة محمد إلى الوفاء غاية الوفاء،إلى وفاء يجعلنى أشك فى بشريته،وعجبى من عقول آدمية تنسب أبا القاسم للمصانعة،حيث يضرب المثل المذهل المعجز للأريحية والوفاء الذى لا يبارى،وقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد.

(٥)

ويبدأ نظمى لوقا بعد ذلك فى تفصيل عدد من حكايات زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من زوجاته،لقد فرغ من حكاية الرسول مع السيدة خديجة،ويسأل:«والآن ما خبر زوجاته التسع؟ما خبر ذلك العدد الذى سجله التاريخ بحذافيره وتفاصيل ظروفه،واتخذه المفتاتون للمغالطة والتجريح،فنسبوه إلى الشهوة والجموح؟».

وتأتى الإجابة:«نبدأ ونقول : أنهن كن تسعا جمع بينهن فى وقت واحد،ولكن مجموع من تزوج بهن بعد خديجة كان عشرا،ماتت إحداهن ولم تلبث فى بيته إلا أسابيع معدودة،وهى زينب بنت خزيمة التى لقبت بأم المساكين لشدة حبها للفقراء

وعطفها عليهم وبرها بهم».

ويميل نظمى إلى توضيح منهجه،فهو يتعرض للزوجات العشر ليتعرف على ظروف زواج محمد بهن،وليرى من خلال ذلك دوافع زواجه بكل واحدة منهن عناصر الشهوة التى يقولون فيها ويعيدون.

والبداية مع السيدة سودة بنت زمعة.

يقول نظمى لوقا:«هى كما أشرنا أرملة عجوز مات عنها زوجها،وكان من أوائل المصدقين برسالة محمد،فلما اشتد اضطهاد القرشيين له وأمثاله هاجر فيمن هاجر بأهله إلى الحبشة،حيث نزلوا فى رحال النجاشى أمدا،عسى أن يبدل الله العسر يسرا،وتزول عماية الكفر عن أهل مكة فيعودوا إليها آمنين.

ولما طال المكث على السكران بن عمر العامرى زوج السيدة سودة ظن أن الأمور قد تحولت إلى جانب المسلمين،وعاد بها إلى أرض العرب،ومات السكران عقيب وصوله وترك زوجته مهيضة الجناح،معرضة لنكال أبيها الذى كان على الشرك،فإن تركت تحت سلطانه لم يؤمن على دينها منه،وهى لا سند لها ولا عائل ولا صناعة.

كان الموقف عصيبا،فالمسلمون والمسلمات فى ذلك العهد قليل عددهم فى قريش غاية القلة،والتنكيل بهم على أشده بعد أن مات أبو طالب عم الرسول،حتى اجترأ المجترئون على إيذائه إيذاء بدنيا عنيفا،بعد أن كان جل إيذائهم من قبل باللسان والإشارة،وإذا كان هذا هو حال الرسول فكيف يكون حال من دون من أتباعه؟ثم كيف يكون حال امرأة فقدت زوجها ولا نصير لها.

محنة اهتزت لها قلوب المؤمنين وشغلت بالهم،وكان التكافل هو الواجب الأول والخاطر فى كل ذهن: من الواجب أن يضم كل رجل مسلم مثل هذه الأرملة المهددة فى دينها،المطعون فى طمأنينتها،المستوحشة بفقدان عشيرتها،والتعدد ليس سنة مستحدثة فى

العرب،بل ذلك حاهم منذ قديم،وأولى الناس بضم مثلها من لا زوجة له.

والرسول يومئذ بغير زوجة،فإذا تعرضت المؤمنة خولة بنت حكيم لمفاتحته فى الزواج ليجد الرعاية والراحة،ولتجد طفلته اليتيمة فاطمة الرعاية والخدمة،نراها تقترح عليه الزواج بتلك الأرملة العجوز الكسيرة الفؤاد المعرضة للفتنة عن دينها أو الإيذاء بسببها،وكأنما كانت خولة تذكر له واجبا مفروغا منه،فما ينبغى أن يتزوج مسلم،وما أقل عدد المسلمين يؤمئذ،تاركا سودة لمحنتها،متخطيا إياها فتزداد شماتة الكفار بها،فهل كان محمد إذ ارتضى الزواج الرجل الذى يتخلى عن هذه المسكينة فيعرضها للقهر والشماتة.

معاذ النخوة....ليتزوجها إذن،لتكون مدبرة لبيته ومربية لابنته،لا لتكون متعة حس ولذة مضجع،تزوجها لتكون فى كنفه،وتنعم بظله وعطفه،ولتجد فى الزواج منه شرفا وعزاء وعاصما من النكال والردة،ولتحل بين أبناء دينها الجديد أرفع مكانة تصبو إليها المرأة المسلمة مكانة أم المؤمنين.

وبعد سنوات قلائل أحست سودة أنها عبء على كرم زوجها وبره،فاستأذنته أن تظل فى بيته وتعفيه من حقوق الزوجية،فهى على حد قولها:والله ما بى على الأزواج من حرص،ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك.

وبقيت هناك تصلى وتصوم وتتصدق (زوجة شرف) لا أكثر،وما كانت تصلح من الزواج إلا لهذا،وما صلحت لهذا إلا لنخوة ذلك الرجل الذى ينسبه أولاد الحلال لجموح الشهوة».

(٦)

ومن سودة بنت زمعة إلى السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب،يقول عنها نظمى:«كانت زوجة لخنيس بن حذافة من بنى سهم،وهو أحد المسلمين القلة الذين

شهدوا بدرا وانتصروا على أضعاف عددهم من أهل الكفر،وبعد قليل من تلك المرقعة مات خنيس بن حذافة وترك بعده الأرملة الشابة وسنها لم يتجاوز الثامنة عشره.

لم يجد والدها عمر بن الخطاب أنه من العدل أن تظل ابنته الشابة من غير زوج يصونها ويذهب عنها لوعة الترمل،وذله،وهو يعلم أن المراة حيية لا تطلب لنفسها،ولا تفصح عن دفين حالها،وذلك أدعى إلى إلقاء الإحساس بمسئوليته عنها على عاتقه.

والمسلمون فى دار الهجرة قلة بين العرب،شبيه حالهم بما كانوا عليه فى قريش قبل الهجرة من قلة العدد وضيق الحال،بل إن الحال زاد اليوم عنصرا جديدا،هو عنصر موت الرجال وتساقطهم فى الغزوات،فيتجه عدد الذكور إلى القلة ويتجه عدد الإناث المترملات إلى الكثرة،ونشأت عن ذلك حالة اجتماعية جديدة،أوحت بحل ليس أيسر منه ولا أقرب إلى البداهة فى بيئة قامت منذ قديم الأزل على تعدد الزوجات،أن يحمل كل أخ فى الإسلام عن أخ له أو ند شئيا من أعباء تركته،فيصون زوجته من الترمل والوحشة،ويعصمها من الفتنة أو المذلة،ويدفع عنها الحاجة لا بصدقة تأباها أو تهدر قدرها،بل بزواج يقيم ظهرها ويرفع رأسها،كى تدرك كل مسلمة أن المجاهد فى سبيل الدين لن تكون عاقبته الخذلان والخسران وزوال الستر عن كل ذات خدر،وذلك أدعى لاندمال الجرح والإحساس بالتكافل فى العسر.

بهذا الإحساس ذهب عمر بن الخطاب والد الأرملة الشابة ينشد لها زوجا،وكان طبيعيا أن ينشد لها زوجا يحمل زواجه بها معنى التعزية والتكريم وحسن العوض عن زوجها الراحل،ونظر فلم يجد بين المسلمين من هو أكرم وأبرز من صديقه أبى بكر الصديق،ولم تكن مسألة السن عند العرب ذات بال،فلم يرده عن ذلك الخاطر

أن أبا بكر أكبر منه سنا،وذهب إليه يعرض عليه الزواج من ابنته،ولم يجبه أبو بكر فتركه مر ساخطا غاضبا.

اتجه عمر إلى الشيخ الجليل الوقور عثمان بن عفان الذى كان متزوجا من السيدة رقية بنت محمد ثم ماتت عنده،وبقى محزونًا عليها لا يتزوج،لكن عثمان قال له:ما أريد أن أتزوج اليوم.

ويسأل نظمى لوقا:ولكن كيف كانت حفصة؟

ويجيب:«لم يذكر التاريخ عنها أنها كانت ذات حسن باهر أو جمال آسر،ولا نعتقد أن أباها كان يجشم نفسه كل هذا العناء – وهو من هو كرامة واعتدادا بنفسه – أو أنها كانت ذات ملاحة ظاهرة».

ذهب عمر إلى الرسول والغضب يكاد يذهب بلبه،فتلقاه وهو أعلم الناس بحدة طبعه واستوضحه ما يعانيه من الكرب،فذكر له ما فعل صاحباه،وكيف رداه ذلك الرد وقد نشد لديهما النخوة والأخوة،ومن ذا يجامل عمر إن لم يجامله فى ابنته أبو بكر وعثمان بن عفان؟من ذا يقبلها إذا اعتذر عن ذلك أو ضاق به هذان؟

وأدرك الإنسان الكبير القلب ما يعانيه صاحبه الكبير من الألم والمضاضة، وتصرف بوحى من كياسته ونخوته فقال له مواسيا:يتزوج حفصة من هو خير من عثمان...ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة.

فطن عمر إلى المعنى الوحيد الذى يستفاد من أن حفصة سيتزوجها من هو خير من عثمان،إذن سيكون هو الزوج،وسيسوى الرسول فى المصاهرة بين صاحبيه الكبيرين أبى بكر وعمر،ومرة أخرى دخلت البيت الكبير زوجة لم تضمها إلى محمد عرامة الشهوة بل نبالة النخوة،وحسبنا فى هذا المقام أن نذكر قول أبيها لها ذات يوم:والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولا أنا لطلقك.

(٧)

وينتقل نظمى لوقا بعد ذلك إلى السيدة أم سلمة بنت ذات الركب،يقول:«هى مجاهدة من المجاهدات الأوليات فى الإسلام،امتحنت فى دينها أشق امتحان تبلى به امرأة،فصمدت وانتصرت،وصار لها حق عظيم فى رقاب المسلمين،وعقيلة عزيزة الجانب،رفيعة النسب،أبوها هو أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم الملقب بزاد الركب،وكان ممن يضرب بهم العرب المثل فى الجود؛لأنه إذا سافر لا يسمح لأحد أن يصحبه ومعه زاد،بل يكفى رفاقه جميعا زاد سفرهم مهما طال».

ترملت أم سلمة،مات عنها زوجها شهيدا أو هو فى حكم الشهيد،بعد بلاء حسن فى نشر الدين الجديد والذود عنه،وبعد انتصار كبير كان له أثر واضح فى تثبيت سمعة الإسلام فى نفوس قبائل العرب جميعا وحفظ هيبة الدولة الناشئة بالمدينة من الإنهيار.

هذا الزوج هو أبو سلمة،عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة،الفارس الصحابى المغوار،وابن عمة الرسول،وأخوه فى الرضاعة،وكان الزوجان من أوائل المؤمنين المصدقين بالرسول وما أنزل إليه،وعندما هاجر المسلمون الأولون إلى الحبشة فرارا بدينهم من عنت الأهل والعشيرة فى مكه كانا أول المهاجرين،وفى مهجرهما ببلاد الحبشة،ولدت هند ابنها سلمة الذى عرفت به وكنى به أبوه عبد الله.

عاد المهاجرون فيمن عاد إلى مكه على أمل انتهاء الأزمة،فإذا النكال أدهى وأشد،فلم يطق كثيرون من المسلمين البقاء،وفكروا فى مهجر جديد،وكان الصفوة السابقون من أهل يثرب قد اعتنقوا الإسلام،فكان طبيعيا أن يفكر هؤلاء القرشيون المغلوبون على أمرهم فى الهجرة إلى يثرب.

كان أبو سلمة بن عبد الأسد أول من هاجر إلى يثرب من قريش،ولكن هذه

الهجرة كانت اجتراء على سلطان قريش خشيت عواقبه فراحت تحول دونه ما استطاعت،فابتليت أم سلمة فى ذلك السبيل بلاء شديدا.

ويقول ابن هشام فى سيرته على لسان أم سلمة:«لما جمع أبو سلمة على الخروج إلى المدينة رحل لى بعيرى ثم حملنى وحمل معى ابنى سلمة فى حجرى،ثم خرج بى يقود بى بعيره،فلما رأته رجال بنى المغيرة(عشيرة أم سلمة قاموا إليه فقالوا:هذه نفسك غلبتنا عليها،أرأيت صاحبتك هذه؟علام نتركك تسير بها فى البلاد؟،فنزعوا خطام البعير من يده،فأخذونى فيه،وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد (عشيرة زوجها أبى سلمة) فقالوا:لا والله..لا نترك ابنا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا،فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده،وانطلق به بنو عبد الأسد وحبسنى بنو المغيرة (عشيرتها) عندهم».

وتكمل أم سلمة ما جرى معها:«انطلق زوجى إلى المدينة،ففرق بينى وبين زوجى وبين ابنى،فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكى حتى أمسى سنة أو قريبا منها،حتى مر بى رجل من بنى عمى أحد بنى المغيرة فرأى ما بى فرحمنى،فقال لبنى المغيرة:ألا تخرجون هذه المسكينة،فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها،فقالوا لى:الحق بزوجك إن شئت».

وتتوالى فصول المأساة :«رد بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابنى فارتحلت بعيرى ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى،ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ،وما معى أحد من خلق الله،والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة».

كان هذا جانب من جهاد هند بنت ذات الركب،العقيلة بنت الأمجاد الأجاويد،وما تحملته من الهم والإيذاء،وما صبرت عليه من آلام أصابت أمومتها وأصابت أنوثتها،فكانت مثال الوفاء والتجلد والشجاعة والإقدام،وسجل لها

تاريخ الجهاد أنها كانت أول مسلمة هاجرت إلى الحبشة،وأول مسلمة هاجرت إلى المدينة،وكذلك كان زوجها أول صحابى هاجر إلى المدينة،فهل مثل هذه المجاهدة الصابرة تترك لذل الترمل حين يموت عنها زوجها البطل،التى كانت منه فى خير ظل؟.

لكن كيف ترملت أم سلمة؟...لقد كان زوجها أحد القلة المنصورة فى بدر،وأحد القلة الثابتة الصابرة فى أحد،وفى أحد أبلى فى النضح عن ابن خاله الرسول حتى أصيب بجرح غائر،وبعد شهرين من أحد بدأت القبائل تتواثب مجترئة على المسلمين،وعلم الرسول أن بنى أسد فى مقدمة المتأهبين للهجوم ففكر فى تلقينهم درسا حتى لا يجترئ سواهم،وخير وسائل الدفاع المبادأة بالهجوم.

عقد الرسول لابن عمته أبى سلمة لواء تلك البعثة الفدائية التى كان عدتها مائة وخمسين مقاتلا،فيهم نفر من أعظم الفرسان وأكرم الصحابة،من طراز أبى عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص،وانتصر أبو سلمة ولكن ثمن النصر كان باهظا،أداه من حياته؛لأن جرحه القديم فى أحد انتكأ فعاد إلى يثرب ليلزم فراشه حتى مات،مات على صدر ابن خاله الرسول،سجاه بيديه،وقد نال منه الحزن على فقده،فظل يكبر عليه حتى بلغ عدد التكبيرات تسعا،لشدة ما يجده لفراقه والأسى عليه.

وكان لابد من المواساة بالنفس،ألا يتزوج الشقيق أرملة شقيقه ليصونها ويكون بنو أخيه الراحل تحت جناحه فيعفيهم من اليتم والتأيم؟،ولم يتردد الصاحبان العظيمان أبو بكر وعمر فى القيام بحق النجدة والأخوة،بعث كل منهما إلى هند أم سلمة بنت زاد الركب يعرض عليها الزواج بعد انقضاء عدتها ليكون لها مكان عزيز فى بيت عزيز،وأبت أم سلمة.

عندئذ رأى الرسول القائد أن يمد يده إلى أرملة أخيه فى الرضاع وابن عمته المهاجر الفارس الشجاع مواسيا بنفسه،يطلب إليه يدها،مواساة يجللها الأسى على راحل عزيز،وخجلت الأرملة المجاهدة الشجاعة،وبعثت تعتذر بكبر سنها وكثرة عيالها،وفى لهجة الإ ار على المواساة والبر بعث يقول لها:أما أنك مسنة فأنا أكبر منك،وأما العيال فإلى الله ورسوله.

ويتساءل نظمى لوقا:«أفى مثل هذا الزواج الذى أملته دوافع الأسى والنخوة يجترئ الآفكون على جلال ذلك الحزن النبيل فيذكرون لفظ الشهوة؟،أى جرأة وهذا الزوج العظيم لا يدخل بيت الزوجة الباسلة إلا وسألها عن صغيرتها بنت الراحل العزيز بصيغة التدليل:أين زناب؟..يعنى صغيرتها زينب بنت أبى سلمة.

(٨)

الآن يصل نظمى لوقا إلى السيدة جويرية بنت الحارث سيدة بنى المصطلق.

يقول نظمى لوقا:«كان قد مضى على الهجرة إلى المدينة وقيام تلك الفئة المطاردة الملتمسة للأمن والنجاة خمسة أعوام،وبدأت السنة السادسة،وجاءت المخابرات الدقيقة التى أنشأها محمد بعبقريته وإلهامه تبلغه أن حيا من خزاعة وهم بنو المصطلق يتأهبون للهجوم على المدينة بزعامة شيخهم الحارث بن أبى ضرار،وعلى سنته فى المبادرة بالهجوم على عدوه قبل أن يبدأه بالهجوم وقد تم استعداده،انطلق كالصقر بجيشه فانقض على بنى المصطلق عند ماء المريسيع،وحمى الوطيس إلى أن انتهى بهزيمة بنى المصطلق هزيمة منكرة،وسبقت نساؤهم سبايا ومنهن ابنة زعيمهم جويرية بنت الحارث».

عاد الجيش الظافر إلى المدينة،وقد وزعت السبايا على المحاربين،فكانت بنت قائد بنى المصطلق من نصيب أحدهم،عرض عليها الرجل أن يكاتبها،أى تجمع له

فديتها فيطلق سراحها فتعود إلى أهلها،وخرجت بنت العز والشرف والجاه،بنت القائد المهزوم هائمة فى شوارع المدينة لا تدرى كيف تحصل على فديته من الرق،وخطر لها أن تستثير نخوة القائد المنتصر،فوقفت ببابه وهو يومئذ فى حجرة عائشة بنت أبى بكر،واستأذنت عليه،ودخلت فى كبرياء متداعية وإباء مترنح تعرض عليه أساها وكربها.

قالت السيدة جويرية:«يا رسول الله..أنا بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه،وقد أصابنى من البلاء ما تعلم فوقعت فى السهم لثابت بن قيس،فكاتبته على نفسى..فجئتك أستعينك على أمرى».

ما كان أشد وقع هذه الكلمات – كما يقول نظمى – على فارس ذى مروءة،ابنة عدوه المهزوم تستعينه ليقيل عثرتها،وهو الذى هزم أباها وسبب ذلها ووقوعها فى السبى،تمد يدها إليه ليأسو جرحها وسيفه هو الذى سدد الضربة،ولينقذها من العار الذى أنزلته بها شريعة الحرب التى ويل للمغلوب فيها من الغالب.

قرر الرسول أن يجمع بين الحسنيين فى عمل واحد فذ،كسب به قلوبا جديدة وشعبا جديدا،وأعلن لأشتات القبائل أن محمدا أكرم الناس وهو منتصر،وأن الولاء له والدخول فى دينه وطاعته أكرم لهم من مناجزة من كان على خلقه النبيل،عداء لا طائل تحته.

قال محمد للأسيرة:فهل لك فى خير من ذلك؟،فسألته متعجبة لهفانة:وما هو يا رسول الله؟فقال لها فى ترفق واضح:أقضى عنك كتابك وأتزوجك.

لفتة بارعة عبقرية تجمع بين نبل الفروسية والإلهام السديد،فهو لا يرفع عنها ذل الرق والأسر فحسب،بل يرد إليها عزتها أعز مما كانت عليه قبل السبى،يرفعها من الأسر إلى مقام زوجة القائد المظفر،ويرفعها من الكفر إلى مقام أم المؤمنين،ويجعل

بينه وبين أهلها المهزومين نسبا وصهرا فيغسل الثأر،ويحول الهزيمة والعداء إلى ألفة وولاء.

كان طبيعيا أن تقبل الأسيرة ذلك الشرف الذى فتح لها الرسول أبوابه،وعندما عرف سائر الصحابة أمر زواج الرسول من السيدة جويرية،حتى أخذ كل منهم يطلق سراح من عنده من أسراهم وسباياهم أحرارا لوجه الله،وهم يهتفون: أصهار رسول الله،وهكذا أعتق بزواجها أهل مائة بيت فيما يقال من بيوت قومها،واهتز أبوها لذلك النبل الذى أسر به محمد قلبه وقلب سائر بنى المصطلق،فأسلم وأسلموا،وفعل هذا الزواج ما لم يفعله السيف فى سلسلة من المعارك.

ويسأل نظمى:«فأين هذه الكياسة الملهمة من الشهوة المزعومة؟،لقد كان بيده أن يجعلها من نصيبه من السبايا،وكان بيده وقدرته أن يجعلها فى ملك يمينه بشرائها من قيس بن ثابت،ولكن المسألة أكبر وأجل من فتاة راقت لرجل فتمناها؛لأن المسألة كانت مسألة فتح مبين،وتألف قلوب،وانتشار دين،ثم هى فضلا عن هذا مسألة نخوة لا نزوة.

(٩)

ومن السيدة جويرية إلى السيدة صفية بنت حيى بن أخطب عقيلة بنى النضير،يقول نظمى لوقا عنها:«بنت ملك وزوجة ملك،ينتهى نسبها العريق إلى هارون أخى موسى،وزوجها أحد ملوك خيبر،كنانة بن الربيع صاحب حصن القموص أمتع حصون اليهود،وعنده كنزهم الأكبر،وبشريعة الحرب التى لا ترحم،ستقط صناديد خيبر صرعى بعد أن سقطت قلاعهم،وسقطت نساؤهم سبايا بين الغالبين.

ومن بين السبايا العقيلة التى أعزها نسب رفيع ومكان منيع زال ملكها،

وضاعت حريتها، وفتى آلها أجمعون، من الزواج إلى الشقيق إلى بنى العمومة الأقربين، وانتهت فى ساعة من الزمن،إلى ذلك الأسر المهين.

فماذا فعل الفارس القائد النخوة من قبل فى عقيلة بنى المصطلق؟

لم يترك عزيزة القوم تقع فى نصيب أحد أتباعه ليبيعها أو يضطرها إلى استجداء ما تستعين به على فك أسرها ورفع رقها،ليحسم الأمر من بدايته وليجعلها فى سهمه هو،فلابد على كل حال من خمس الغنائم للقائد الرسول بعد كل معركة،فلتكن صفية إن من ذلك الخمس المقسوم.

كان بيده أن يجعلها أمة من إمائه لو أنه كان ينظر إلى متعة،ولكنه حررها،وتزوجها لتكون لها عزة بعد ذلة،وهو الذى طالما أكرم عزي قوم ذل،ولكى يعلم من لم يعلم بعد أن محمدا يجبر القلوب الكسيرة،ويعفو عند المقدرة،ويأسو ما جرحه مضطرا.

ويذكر التاريخ لصفية جمالا معروفا فى بنات إسرائيل،ولكن الجمال لم يكن هو الدافع إلى ذلك الزواج،وما نظن إلا أن سواها من السبايا كن فى مثل جمالها أو يقاربنه،وهن بنات عمومتها وخئولتها اليهوديات،فما باله لم يدخل فى حريمه بملك اليمين زهرات مونقة من ذلك الحسن المباح بشريعة الحرب لكل محارب منتصر؟».

ويذهب نظمى لوقا إلى أن ظروف صفية التى سقط فى الميدان أبوها وزوجها وأخوها وكانت السيدة الأولى فى تلك الدولة المنهارة،هى التى أثارت نخوة الفارس القائد الرسول،ولم تكن الشهوة هى التى حركته إلى ذلك الزواج،جبر خاطر كسير،هذا هو الباعث الخفى على هذا الزواج،وهذا شأن من تحركه النخوة لا النزوة.ولكنه ضلال القوم وإفكهم،ومنطق الأكذوبة الذى لا يستحى.

***

(١٠)

الزوجة القادمة هى أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان،التى لم تقف بباب الرسول تستحث نجدته وأريحيته،ولم تعرض عليه بين السبايا وقد زال عنها الأب أو الزوج أو الأخ،لكنها كانت فى موقف أشد من هذا وأنكد.

يقول نظمى:«قبل بعثة الرسول كانت رملة بنت أبى سفيان متزوجة من عبيد الله بن جحش الأسدى،ابن عمة الرسول،وآمن عبيد الله بما أنزل على ابن خاله فأعلن إسلامه،وأعلنت رملة إسلامها،ولم يمنعها من ذلك أن أباها زعيم قريش المشركة المنافحة عن الكفر المجاهدة للرسول وأصحابه،وكان فى وسعها أن تلحق بأبيها موفورة الكرامة آمنة ناجية لولا أن الإيمان الجديد دخل قلبها،ووطنت النفس على تحمل قسطها من الاضطهاد، وهو قسط قد يزيد بحكم القرابة الوشيجة على قسط سائر المسلمات.

لكن باب الهجرة إلى الحبشة أتاح لها فرارا من ذلك الأذى،ولنا أن نتصور مداه وهذه عقيلة بنت أمية تضطر إلى ركوب ظهر البعير ثم متن السفن،وهى حبلى متوجعة من حملها الأول،كى تفلت من يد أب متكبر حانق كان أحب إليها أن يوسدها الثرى من أن تطوف البلاد مهاجرة لتعرضه لسخرية الساخرين من ضعف سلطانه على بنية من صلبه،وما كادت رملة تصل إلى أرض النجاشى،وتطمئن كما اطمأن سائر المهاجرين المسلمين إلى حمايته ورعايته،حتى وضعت بنتها حبيبة التى عرفت فى التاريخ من بعد باسمها.

وفى الحبشة تخلى عنها زوجها،ثم تخلى عنها لأنه تخلى عن العقيدة التى بسببها حدث ذلك كله،ومن أجلها انقطع ما بينها وبين أبيها وقومها العتاة الأمجاد،كانت صدمة قاسية لرملة أم حبيبة،وهذا وفد قريش جاء النجاشى يحرضه على المسلمين اللاجئين ويتسقط أخبارهم ليعود بها إلى قريش الحانقة المتربصة.

لم تجسر رملة على العودة إلى مكة،فقد ورثت عن أجدادها الكبرياء والأنفة من الشماتة،لن تعود لتجرر بين أهلها الشامتين ذيول الخيبة والمهانة،ستبقى حيث هى إلى أن يقضى الله أمرا،وجاءت الأخبار إلى محمد،جاءته وهو صاحب النخوة،وتمثل كرب أم حبيبة فى ديار الغربة،فأقدم على العمل الوحيد الذى ينتظر منه،مد يده عبر الفيافى والبحر إلى العقيلة المخذولة ليبدلها من زوجها المتخلى عنها خيرا منه،خير زوج تطمع فيه عقيلة تدين بالإسلام،ليبدلها من الشماتة زهوا ومن الخذلان تيها.

بعث إليها يخطبها لنفسه،ووكل النجاشى فى تزويجها منه،وفى أرض المهجر التى شهدت خذلانها الموجع،أصبحت أم حبيبة زوجة للرسول عن طريق ذلك التوكيل،وتطوع النجاشى النصرانى فدفع إليها أربعمائة دينار مهرا هدية خالصة منه وغمرها بمظاهر التكريم هى وسائر المسلمين اللاجئين إليه.

بقيت أم حبيبة فى الحبشة حينا من الدهر،إلى أن تثبت أقدام الدولة الإسلامية فى المدينة،وأرسل النبى يطلب بقية أتباعه المهاجرين من أرض النجاشى،وعدتهم ستة عشر رجلا ومعهم النساء والأطفال،على رأسهم ابن عم الرسول جعفر بن أبى طالب،ورملة أم حبيبة بنت أبى سفيان التى أمست أم المؤمنين،وهى فى بلاد الغربة قبل أن تقع عين زوجها عليها بأمد بعيد.

ما أشد وقع ذلك الزواج على معسكر الكفر كله،أكانت أم حبيبة معرضة للشماتة بتخلى زوجها عنها وعن الدين الجديد فى أرض الهجرة البعيد؟أكان الدين الجديد عرضة للشماتة بهذا الارتداد؟لقد انقلب الموقف بهذا الزواج إلى النقيض،فهذه بنت زعيم قريش وقائد معسكر الكفر كله تغدو زوجة لمحمد،وانقلبت السخرية بين أحياء العرب لتركب ظهر أبى سفيان،وفى لك الموقف العصيب على أبى سفيان أطلق كلمته المشهورى:هذا الفحل لا يجدع أنفه.

كان الرسول يعلم تمام العلم أن السخرية أمضى سلاح فى معارك السياسة والرأى والعقيدة،فقلب الأمر على أبى سفيان،وجعله مطية للسخرية،وقد احتفلت المدينة كلها بعرس أم حبيبة كى يتحدث العرب بذلك النصر السياسى المعنوى الذى يفوق النصر فى سلسلة معارك تسيل فيها الدماء،ولم تخل سريرة أبى سفيان مع هذا من حمد خفى لذلك الفحل ذى الأريحية والنخوة،فالتى رفع قدرها وأعلى ذكرها هى ابنته على كل حال،وبذلك بذرت بذرة تؤلف قلب أبى سفيان وعشيرته،عسى أن تنبت هذه البذرة وتوتي ثمارها بعد حين.

ويلخص نظمى لوقا ما حدث مع أم حبيبة يقول:«زواج نخوة وزواج كياسة وزواج حماية لسمعة الدعوة،زواج تم على بياض فى أرض بعيدة،ولا أحد يدرى هل يكتب للغائبة العودة مع سائر الغائبين،أم يكون اللقاء فى رحاب الله يوم يبعثون،زواج يمكن أن يقال فى بواعثه أى شئ،إلا أنه زواج شهوة أو قضاء نزوة،زواج أضفى على محمد كل إكبار وإجلال،بعد أن كان معرضا للسخرية لما فعله ابن عمته من الإرتداد،وكان أكبر الإجلال ما شعرت به هذه الزوجة العريقة الأبية.

(١١)

المرأة هذه المرة هى ميمونة بنت الحارث التى كانت آخر نساء محمد صلى الله عليه وسلم،يقول عنها نظمى لوقا:«كان العام عام عمرة القضاء،دخل المسلمون مكة مسالمين بعد صلح الحديبية ليؤدوا فريضة الحج لأول مرة منذ الهجرة إلى المدينة،وخلت مكة بمقتضى ذلك الصلح من أهلها المشركين،وكان ذلك الحج أكبر مظهر سلمى رائع استعرض فيه المسلمون قوتهم وكثرتهم،وبدا فيه فجر النصر الكامل قريبا،واهتزت شعاب مكة وبيوتها بهتاف المسلمين وتلبيتهم كالرعد القاصف».

وسط هذه الأجواء إذا بعقيلة من عقيلات العرب المعدودات،شقيق زوجة العباس عم محمد،وشقيقة زوجة حمزة ابن عم محمد،ترى ذلك المنظر الباهر فتهزها الحماسة والأريحية وتصيح وهى تشهد ذلك اليوم على بعيرها:البعير وما عليه لله والرسول.

أفضت بذلك إلى العباس زوج أختها فرفع الأمر إلى ابن أخيه فلم يرد هبتها وتزوجها وهى يؤمئذ أرملة دون الثلاثين،وما كان له أن يردها فيكون ذلك خذلانا لمن جادت له بنفسها،تحت وطأة الحماسة لدخوله معقل الشرك وطوافه ببيت إسماعيل،وفى الزواج بها تحت ضوء تلك الظروف تسجيل لروعة تلك العمرة وتسجيل لما ألهبت به القلوب من حماسة وإجلال.

أراد الرسول أن يجعل ذلك التسجيل أبهى وأوقع،فعرض على الكفار أن يتم العرس فى مكة ليولم لأهلها وليمة يشهدها الجميع من مسلمين ومشركين،وفى ذلك ما فيه من كبت قريش ولكنهم أبوا عليه،وفى الطريق إلى المدينة أقام محمد العرس،ليكون بمشهد من أحياء العرب فى المعسكر المكشوف،تسجيل نصر وتسجيل حماسة وفخر.

كان ذلك هو زواجه من ميمونة بنت الحارث التى صبت إلى الزواج منه رغبة فى شرف أمومة المؤمنين،فلم يخيب لها رجاء ليس من البر والحكمة أن يخيبه لعقيلة كريمة ذات صهر قديم.

(١٢)

فى فاصل بين هؤلاء الزوجات وبين زوجتين هما السيدة زينب بنت جحش والسيدة عائشة رضى الله عنهما لأن لهما وضع خاص،يذهب نظمى لوقا إلى أن هؤلاء زوجاته اللواتى بنى بهن وجمع بينهن،لم تكن واحدة منهن هدف اشتهاء كما

يزعمون،وما من واحدة منهن إلا كان زواجه بها أدخل فى باب الرحمة وإقالة العثار والمواساة الكريمة،أو لكسب مودة القبائل وتأليف قلوبها بالمصاهرة وهى بعد حديثة عهد بالدين الجديد.

يقول نظمى:«هى ضريبة واجب إذن أو ضريبة مكانة وزعامة،وأخال لو كان له إخوة لزوجهم على ذلك المنوال ليحملوا عنه بعض تلك الأعباء،وما كان من الهين على رسول قائد جيش وحاكم دولة محاربة أن يزيد أعباءه بما يكون فى بيت كثير النساء من خلافات على صغائر الأمور،ولكنه الواجب،واجب الدعوة أو واجب النخوة،وشتان بين ذلك وما يتشدقون به من أمارة النزوة.

واجب باهظ التكاليف من أعصابه وذهنه،واجب أقدم البعض على استغلاله استغلالاً منكرا،فرأينا من يعضلها أن تجد زوجا لا ترعى الحشمة وتذهب إلى الرسول تعرض عليه نفسها متطاولة إلى شرف أمومة المؤمنين،وهى غير أهل لذلك الشرف بمحتد أو فضل أو سابقة جهاد،ويسكت محرجا لا يريد أن يجرح كرامة تلك المجترئة عسى أن تنصرف عنه،وهو يعلم أن قبوله الزواج من مثلها سيفتح عليه بابا لا قبل له به،ولولا أن أحد أصحابه جعل نفسه فداء للرسول من ذلك الزواج بالهبة لأوذى فى حيائه بإحدى خطتين:إما التورط فى القبول أو المجاهرة بالرفض الصريح.

أنقذه القرآن بعد ذلك من مثل التورط الفادح،فحرم عليه بصريح النص فى سورة الأحزاب أن يتزوج النساء من بعد أو أن يبدل بهن أزواجا أخريات،ولعل فى ذلك ما ينتهى به الجدل فى أمر سبغ من أولئك الزوجات.

(١٣)

يصل نظمى لوقا إلى أحد الأزمات الكبرى فى حياة الرسول الخاصة،وهى

الأزمة التى حدثت على هامش زواجه من السيدة زينب بنت جحش،يقول:هذه زوجة كثر فى زواج محمد بها اللغط،وعلت للمغرضين ضجة كبرى تولى كبرها مستشرقون كثيرون،وتبعهم من السوقة أقوام وأقوام،وكان سندهم فيها كالعهد بمنطق الأكذوبة أساسا تاريخيا أقاموا عليه صرح المغالطة:تزوج محمد ابنة عمته زينب بنت جحش».

حقيقة تاريخية ثابتة ليست موضع جدل،وكانت زينب بنت جحش زوجة زيد ابن حارثة ثم طلقها بعد خلاف بينهما وجفوة،وهذه حقيقة تاريخية ثابتة كذلك ليست موضع جدل،وزيد بن حارثة كان ابنا بالتبنى لمحمد منذ الجاهلية وهو الذى زوجه ابنة عمته هذه،وهذه أيضا حقيقة تاريخية ثابتة كذلك ليست موضع جدل.

ولكن القصة التى ركبوها تركيبا من هذه العناصر الثلاثة قصة عجيبة حقا فى ألوانها البراقة واستهوائها للعقول الساذجة والنيات الخبيثة،والقصة التى يلكونها أن زينب كانت وضيئة الحسن،وهى حقيقة لا تنكر،وأن الرسول آثر بها زيدا،ثم حدث أن رآها ذات يوم وقد ذهب ينشد زيدا فى داره،فقيل : خرجت تستقبله وترحب به عندما سمعت صوته ينادى زيدا من خارج الدار،وكان خروجها على غير أهبة كاملة فى الزى،فوقعت من قلبه موقعا حسنا.

وفى رواية أخرى من روايات الطبرى : أنه عند وقوف الرسول بباب زيد عبث الهواء بستر من الشعر مسدل على حجرة زينب،فانكشف عنها وهى فى حجرتها حاسرة،فوقع إعجابها فى قلب الرسول،ونهضت زينب تدعوه للدخول كالعادة المتبعة فى المجاملة،فأبى وولى وهو يهمهم بكلمات لم تميز منها زينب سوى قوله:سبحان الله العظيم،سبحان مصرف القلوب،فلما حضر زيد روت له زينب ما كان من حضوره وما سمعته من كلامه وهو منصرف،فذهب زيد إلى الرسول

وعرض عليه أن يفارقها.

ودار بينهما الحوار الآتى:

الرسول:أرابك منها شئ؟

زيد:لا والله يا رسول الله،ما رابنى منها شئ ولا رأيت إلا خيرا ولكنها تتعظم على لشرفها وتؤذينى.

الرسول:اتق الله وأمسك عليك زوجك.

أمسك زيد زوجته ولكن تعاظمها عليه اشتد حتى نفد صبره فطلقها،ففكر الرسول فى الزواج منها ولكنه خشى ألسنة الناس؛لأن الإبن بالتبنى كان حكمه عند العرب فى الجاهلية حكم الإبن الشرعى،فكيف يتزوج الرجل مطلقة ابنه؟

وتتول التولة الغامزة المغرضة ان القرآن حل مشكلة هذه الرغبة المتقدة بآيات أحلت له زواج زينب،بل أمرته به أمرا،وجعلت من ذلك قاعدة عامة حتى لا تكون مطلقات الأبناء بالتبنى أو أراملهم محرمات بعد ذلك على أحد من المسلمين،وهم بذلك يشيرون إلى ما جاء فى سورة الأحزاب:﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾.

وقد استغل المستشرقون ما رواه الطبرى وغيره والزمخشرى الذى قال عند تفسير هذه الآية:«أبصر الرسول زينب بعدما زوجها زيدا فوقعت فى نفسه:سبحان مقلب القلوب،وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها ولو أرادها لاختطبها،فإن قلت:ما الذى أخفى فى نفسه والله مبديه؟قلت:تعلق قلبه بها وقيل:مودة مفرقة زيد إياها»

ويواصل نظمى فى النقل عن الزمخشرى الذى يقول:«فإن قلت:كيف عاتبه الله فى ستر ما استهجن التصريح به،ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع إلى زينب وتتبعها،ولم يعصم نبيه عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقالة؟قلت:كم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحى من اطلاع الناس عليه وهو فى نفسه مباح متسع وحلال مطلق لا مقال فيه ولا عيب عند الله؛لأن طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتهياته غير موصوف بالقبح فى العقل ولا فى الشرع؛لأنه ليس بفعل الإنسان ولا موجود بإختياره».

ويستطرد الزمخشرى فيقول بعد قليل:«ومن هنا كان عتاب الله لرسوله،حين كتم الأمر وبالغ فى كتمه،والله لا يرضى له إلا اتحاد الضمير والظاهر،والثبات فى مواطن الحق،حتى يقتدى به المؤمنون فلا يستحلوا من المكافحة بالحق وإن كان مرا».

وينفذ نظمى لوقا إلى قلب القضية يقول:«هذه هى الروايات التى أطنب المستشرقون فى تخريجها واتخاذها دعامة لتصريحهم وتجنيهم،وأنا لا أجادل فى النصوص؛لأنها أمور فوق كل جدل،وأعنى هنا نصوص القرآن،لا نص الطبرى والزمخشرى،أجل هما إمامان جليلان،ومسلمان صادقان،ولكن القرب فى الزمان والمكان من شخصية فذة مع الحب والتقديس لها ليست ضمانا مطلقا للعصمة من الخطأ فى فهم الدوافع الحقيقية لتلك الشخصية،وأنا من الذين جربوا صدق المثل السائر:رب احمنى من أصدقائى أما أعدائى فأنا كفء لهم».

ولأنه من الضرورى أن يتم تفنيد هذه الروايات،فإن نظمى لوقا يوضح منهجه فى التفنيد،فالمنهج الصحيح فى فهم أعمال كبار الرجال أن نتصورهم فى ضخامتهم وفى عناصر تكوينهم النفسى،وعلى ضوء هذا التصور نتخير من الدوافع المختلفة الممكنة للعمل الواحد فى أعمالهم ما يتفق وشخصيتهم.

وليس للقرب فى الزمن أدنى اعتبار فى هذا،فربما كان البعد أقدر على حسن الفهم وإصابة كبد الحقيقة من المعاصرين،ففى هذه المسائل النفسية يقيس المرء على نفسه غالبا،وليس المقطوع به عندى أن يكون المعاصرون للرسول،أو من هم أقرب إلى زمانه منا أشبه فى تركيبه النفسى أو أقدر على تصور ذلك التركيب والاستنباط منه والقياس عليه،فالقرب زمان أو مكانا ليس حجة على العقل.

ويقول نظمى:«وليس فى عزمى أن أفيض فى بيان المبدأ؛لأنه لو لم يكن صحيحا لكان أصح الناس نظرا وفهما هم الأقدم الأقدم،وليس ذلك كذلك،وسأمضى فى عرض عناصر هذه القضية من بدايتها الطبيعية،كى يتضح للعقل وضعها السليم».

ويأتى دفاع نظمى فى هذه القضية فى نقاط محددة،يمكن أن نجوزها فى الآتى:

أولا:من زيد؟ومن زينب؟ كان عبدا لمحمد،مكانته مكانة الولد بالتبنى برا به وحبا له ورفعا لخسيسته فى قريش،وزينب بنت عمة محمد،فى الذؤابة من قريش حسبا،وفى الذؤابة من المسليمن قرابة من رسوله،ولها فى الجمال شهرة يتحدث بها معاصروها.

ولما بلغ زيد مبلغ الرجال،وآن له أن يتزوج،شاء كرم محمد فى بره به أن يزيد من كرامته،وأن يرفع فوق ما رفع فى قريش من خسيسته،فآثره ببنت عمه العقيلة الكريمة الحسب القريبة النسب الوضيئة الجمال،والذى يدرك بعض الإدارك ما كانت عله الفتاة العربية يؤمئذ من موروث الاعتزاز بالأحساب العريقة،والنظر إلى الكفاءة فى الزواج،يدرك ولا شك مدى العار الذى تستشعره مثل زينب من الزواج بعبد جرى عليه الرق ثم أعتق ولو كان يدعى فى الناس ابن محمد.

رواسب موروثة فى البئية العربية لا حيلة فيها،ولا سيما عند النساء،وناهيك بالأمر إذا اتصل بها للواحدة من قيمة فى نظر نفسها أو نظر الناس،وتأذت زينب

وتأبت،وتأذى أخوها وتأبى،وتحرج الموقف والرسول يريد تحطيم الفوارق بين المسلمين ويقضى على خنزوانة الجاهلية وعصبيتها،فيثوب الناس إلى أن أكرمهم عند الله أتقاهم حقا،ولكن أكرم الناس عند الله ليسوا أكرمهم عند الناس فى جميع الأحوال.

لم يتم زواج زينب الحسناء الأبية العيوف من زيد إلا بحكم لا رد له،وللفرنجة مثل حصيف يضرب للأمر يتم عن غير طيب نفس:فى وسعك أن تأتى بالجواد إلى شاطئ النهر،ولكن ليس فى وسعك أن تحمله على الشرب وهو لا يريد،ووردت زينب مورد زيد،ولكنها ظلت عصبية النفس تجد لذلك الزواج غصة تعترض حلقها،وكلما لقيت زيدا فى الدار تذكرت أن الذى هى فى عصمته إنما دخل دار ابن خالها رقيقا وصيفا،فكيف وهى الحرة تسام ذلك الخسف ونظيراتها ومن دونها تزوجن من أكابر الأحرار؟

وظلت تتعاظم عليه وتؤذيه بتعاظمها على حد قوله،فإذا بالزواج الذى كان سيرفع من خسيسته وقد زادها تأكيدا وليس أقمأ لرجل من زوجة تستصغر شأنه وتزدرى قدره،وضاق زيد بالأمر،وفاتح محمدا فى طلاقها أكثر من مرة،وكان لابد أن يفاتحه فى ذلك،أليس هو الذى زوجه منها،أليس هو منه بمقام الوالد وبه يدعى؟وأليست هى بنت عمته وقد أرادها على ذلك الزواج حتى أذعنت وفى القلب من ذلك شئ.

تردد الرسول طويلا،كلما خاطبه فى طلاقها قال له:اتق الله وأمسك عليك زوجك،فقد كان عزيزا عليه أن ينتهى هذا الزواج الذى سعى فيه وأمر به إلى تصدع وانهيار،وكان عزيزا عليه أن تتقوض القاعدة التى أراد بذلك الزواج تقريرها،وهو محو الفوارق بين المسلمين وإلغاء الطبقات فى صميم الأسرة العربية وتقاليد

المصاهرة فيها،كما محا الفوارق فى الدين والعبادة والجهاد والإمارة.

كان عزيزا عليه أن تقف عقلية المرأة وتمسكها باعتبارات التناظر والتفاخر عقبة دون انتصار هذه الثورة الاجتماعية الإنسانية المنصفة للكرامة البشرية انتصارا كاملا شاملا فى جميع الميادين،ولكن الفتى العزيز عليه وجد الأسى والنكد والإيذاء حيث أراد له أن يجد النعيم والمتعة والعزة،ولكن اعتزاز المرأة كان أقوى من الإصلاح ومن مغزاه الكبير،فاستمرت تؤذى الفتى حتى نفد صبره وطلقها.

ثانيا:طلق زيد زينب ولم تكن له بها حاجة،انقضى وطره منها ولم يعد له فيها مأرب،فماذا ينتظر الآن من زينب؟،ماذا ينتظر العقيلة التى أذعنت طائعة للزواج ممن لا تود،ولكن نفسها لم تنقد سلسة لذلك الزواج فشقيت به وأشقت،وغدت مطلقة صغيرة السن،وضيئة الحسن،بغير زوج يضمها ويعصمها،عادت زينب بنت عمة محمد إلى بيت آلها جريحة مطعونة فى شعورها الأنثوى وشعورها الإجتماعى.

لم تخل من أسى لتوهم هوانها على ابن خالها حتى زوجها من دعى لصيق وعبد عتيق،فانكسر خاطرها وتأذت كرامتها،ولم تخل من تشاؤم وهم،فمن الذى يتزوج ثيبا،مطلقة عتيق؟أكبر الظن لن يقدم على ذلك كفء لها ذو منبت عريق،ويزيد موقفها سوءا،ويزيد همها وحشة،أنها تزوجت مطلقها بأمر كريم،وعلم القاصى والدانى أنها لم تحسن معاشرة ذلك الزوج المظلوم،فمن يجرؤ على زواجها وهو يعلم أن الرسول أمر بالزواج وعارض فى الطلاق كلما استأذنه فيه زيد؟إنها لتحس بوادر النبذ تطبق عليها،وياله من موقف عصيب لحرة حسناء فى مقتبل العمر،وما كان محمد بالذى يفوته ما ينطوى عليه الموقف من اعتبارات دقيقة ثقيلة الوطأة على الشابة المكروبة،وما كان ليغفل عن صلته بما انتهت إليه حالها:أبت الفتاة وأصر هو أن يكون أمره نافذا،وهو الرسول وابن الخال.

وإنه ليعلم علم اليقين وهو الإنسان ذو القلب الكبير أن هوى القلوب لا حيلة للمرء فيه ولا يأتمر بإرادة أو يذعن لعقل،فهو لا يستطيع أن يلوم زينب لأن قلبها عصاها وأبى أن يهفو للفتى الذى يحبه حب الأبناء.

ثالثا:على هذا التأويل أعقل أنا قوله:سبحان مصرف القلوب،أى سبحان الذى صرف قلب الشابة الحسناء عن الفتى الوسيم زيد،فلم تستطع أن تسكن إليه بعد أن تزوجته طائعة مذعنة،ذكر الرسول عندئذ ربه وحكمته،فكيف بعدئذ يلومها على ما لا تملك من هوى قلبها،وسبحان مصرف القلوب،لا لوم عليها،فكيف إذن يتركها تحمل وحدها ما لا وزر لها فيه،ولا طاقة لها بدفعه عن نفسها؟لابد أن تأسو يده الجرح الذى رآه ينزف من وجدانها الأنثوى الرقيق،لابد أن يدفع عنها شعور الهوان والدونية الذى حاق بوهمها من ذلك الزواج المتكافئ على ظنها،لابد من زواج يكون بمثابة رد اعتبار لها،ورأى من واجبه أن يتزوجها.

رابعا:رأى الرسول نفسه أمام اعتبار خاص من مخلفات البئية العربية فى تاريخ جاهليتها الطويل،وما أعنت البئية الصحراوية فى حفاظها على الموروث من الأنساب بنو الموروث من التقاليد،رأى نفسه أمام عقيدة مساواة الأدعياء(الأبناء بالتبنى) بالأبناء الحقيقيين فى كل شئ،فأرملة الإبن بالتبنى أو مطلقته حرام على الأب بالتبنى حرمة مطلقة الإبن الحقيى أو أرملته،حرمة قديمة متأصلة موروثة،وزينب ذات شهرة مستفيضة بالجمال،فما عسى أن يقول الناس إذن؟وما عسى أن تتناجى به أحياء العرب،وقد رأوا الرسول يتزوج مطلقة ابنه؟ألا يرمونه بقالة السوء؟ألا يخوضون فى نزاهة مقصده؟

وتردد محرجا بين إرضاء ضميره وإطاعة نخوته بجبر خاطر زينب الكسير ورفعها إلى مقام أمهات المؤمنين،وبين النأى بنفسه عن تلك الشبهات،ومن قعد

الريبة ركبته،وهو الحصيف الذى خبر قلوب الناس وعرف خوافيهم،غامت نفسه وضاقت فجاجها حتى أتاه القرآن الذى رفع الحرج عنه،وبذلك قضى على سلطان التبنى وما يترتب عليه من حرمة لا أساس لها،أم هل يكون الإبن المتبنى الذى له أب معروف أقرب آصرة من الأخ الشقيق؟وهذه مطلقة الشقيق غير محرمة فكيف تحرم مطلقة اللصيق؟

وما أخفى محمد فى نفسه إلا الربغة فى جبر خاطر كسير لا سبيل إلى علاجه حق العلاج إلا بيده،وما الأمر بالزواج هنا إلا منطوق حكم سبقته حيثياته الملزمة للعقل،وألحقت به القاعدة العامة التى يلتزم بها سائر الناس عن بعد،ولا تثريب فى العقل على من يتزوج مطلقة ﴿فَقَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾[الأحزاب:٣٧] ،أى لم يعد له فيه مأرب،وهى حرة تتزوج من تشاء،ليست فى ذلك حرمة ولا شبه حرمة،وليست تلك بالتى تسقط مروءة أحد،بل إن ظروف ذلك الزواج جميعا تؤذن بأنه كان من أعمال النخوة المأثورة عن محمد،ولم يكن تهورا ساقه إليه هوى صبيانى طائش،ولكن هل كان ذلك الموقف السامى فى فطنته ونبله بالذى يرتقع إلى مستواه كل عقل؟...إن معظم العقول تغرم بزخرفة الخيال وأوهام الحس الشائعة بين سواد الناس،فكان ما كان من اختلاط الفهم أو تلفيق البهتان.

(١٤)

وفى النهاية يصل نظمى لوقا إلى المطعن الأكبر فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم،يصل إلى السيدة عائشة رضى الله عنها،يقول:«لغط المحدثون من المفترين بأمر زواج الرسول من عائشة على ما يروى من أحاديث السيدة عائشة نفسها وهى دون العاشرة وتصايحوا منددين بانتهاك محمد لحرمة الطفولة ونسبوه إلى الوحشية الجنسية،وليس أبعد عن خلائق محمد من مثل هذه الفرية».

فروايات السيرة التى قدرت للسيدة عائشة عند زواج الرسول بها فى دار الهجرة تلك السن الصغيرة،روت أيضا أمرا آخر هو موضع إجماع الرواة،وهو أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبله لجبير بن المطعم بن عدى،وخطبة الرسول للسيدة عائشة لم تكن عن مبادأة منه،بل كانت باقتراح من خولة بنت حكيم،رشحتها للزواج منه وقد رأت حزنه واستيحاشه لوفاة السيدة خديجة،وما كانت أعمار الناس يومئذ لتعرف من شهادات الميلاد وأعمار النساء لم تزل – على عهد شهادات الميلاد – موضع تنقص واضح شائع بين جميع الطبقات،لا عن كذب متعمد،بل عن سليقة فى المرأة متصلة بفطرة أنوثتها.

والذى لا شك فيه أن أعمار البنات كانت تعرف فى تلك البيئة،مثلما تعرف فى بيئات الصعيد الجوانى بعلامات غير علامات التقويم،تعرف بأطوار النمو البدنى،كما يعرف الزراع نضوج الثمرة فى حقله،لا بيوم ثابت،بل بسمة معهودة،وآية هذا النضج هى التى قرأتها خولة بنت حكيم كما قرأتها البيئة كلها،وبوحى من هذه الآية ذكرتها خولة للرسول فى معرض الزواج.

كانت عائشة إذن أنثى ناضجة يومئذ،اسمها فى قائمة المرشحات للزواج،وكان هذا المقترح فى السنة العاشرة للبعثة،أى فى السنة العاشرة لإسلام أبى بكر،وكانت عائشة مخطوبة لفتى آخر هو جبير،خطبها له أبوه المطعم بن عدى،وكان آل المطعم بن عدى جميعا فى السنة العاشرة للمبعث على كفر قريش المعهود فى الجاهلية،وهب أن المطعم بن عدى خطبها لابنه مذ ولدت،فهل كان ذلك معقولا أن يتم وأبو بكر هو من هو فى إسلامه؟

ليس من المرجح بالطبع أن يقبل الصديق بعد أن أسلم ذلك الخاطب المشرك،أو على الأقل ليس مرجحا أن يقبله إذا تقدم بعد أن أمر الرسول بالجهر بالدعوة،فإذا

أضفنا هذه القرينة إلى القرينة السابقة،وهى نضوج عائشة للزواج أو مقاربة نضوجها يوم ذكرتها خولة للرسول،قدرنا سنها فى ذلك اليوم بما لا يقل عن تسع سنين،ومرت بين الخطبة والزواج ثلاث سنوات على الأقل،تصل بها إلى سن الثانية عشرة بحسابنا.

ويشير نظمى إلى أن:«وحتى هذا القرن كانت حواضرنا تشهد زوجات فى هذه السن أو أقل منها،ولا أعدو الحقيقة إذا ذكرت أن ممن أعرفهن أوثق معرفة ممن تزوجن فى آخر العقد الثانى من القرن العشرين وهن دون العاشرة،وأن والدتى كانت لا تتجاوز الثانية عشر بكثير يوم تزوجت أبى،وما كانت تلك السن لذلك العهد موضع غرابة أو استنكار».

وسواء صح أن عائشة كانت فى الثانية عشرة على الأقل،أو كانت أصغر من ذلك بعام أو عامين،فالعبرة بالبيئة التى وقع فيها الحدث،ومن الخلط فى التفكير أن يوزن الحدث منفصلا عن زمانه ومكانه وظروف بيئته جميعا،فلا محل إذن للإدعاء بأن الباعث على هذا الزواج هو الوحشية الجنسية التى تتلذذ لذة منحرفة بانتهاك الطفولة .

هذه واحدة،أما الفرية الثانية التى يمصمص بها المصمصمون شفاههم – كما يقول نظمى – فهى الحديث عن الفارق الكبير فى السن،وحسبنا من رد عليه تكرار ما قيل عن الرجوع إلى البيئة التى وقع فيها الحدث،وما كان فارق السن فيها بدعة وإنما العرف السائد،كان فى ذلك كفاية،ولكننا نزيد عليه ما يثبت نقيض تلك المفتريات والمغامز العرجاء.

لقد كانت السيدة عائشة أحب زوجات الرسول إليه بعد خديجة،هذه حقيقة لا مراء فيها،ولكن لماذا؟...لأن هذه البيئة التى ترعرعت بين سمعه وبصره أحب

الناس إليه،بنت أخيه الصديق..بنت أبى بكر،أحبها أولا لأنها بنت أبى بكر،ودللها تدليل الأب،كان يأتيها فى السنوات الأولى من زواجها بأترابها ليلعبن معها بالدمى والعرائس،وكان يحملها لترى من فوق كتفه،وخدها لصق خده،ملاعب الأحباش بالرماح والدرق،وكان يتغاضى عن هناتها فى ترفق وحنان،كان يشعر بالبنوة وهو مع خديجة،وكان يشعر بحنان الأبوة وهو مع عائشة،كان حب وحنان وترفق،لا حب توحش وانتهاك كما أفكوا،كان لها الأب والزوج معا.

أما المحنة الأكبر فى حياة السيدة عائشة،فهى محنة الإفك،وينقلها نظمى لوقا فى كتابه عن سيرة ابن هشام مروية على لسان السيدة عائشة نفسها.

كان رسول الله إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه،فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه،فلما كانت غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه كما كان يصنع،فخرج سهمى عليهن معه،فخرج بى رسول الله،وكان النساء إذ ذاك يأكلن العلق – القليل من الطعام – لم يهجمهن اللحم فيثقلن،وكنت إذا رحل بعيرى جلست فى هودجى فيدفعونه فيضعونه على ظهر البعير،فيشدون بحباله ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به.

فلما فرغ رسول الله من سفره ذلك توجه قافلا،حتى إذا كان قريبا من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل،ثم أذن فى الناس بالرحيل،فارتحل الناس،وخرجت لبعض حاجتى، وفى عنقى عقد لى فيه جذع ظفار(خرز يمنى) فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى،فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده،وقد أخذ الناس فى الرحيل،فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه،فالتمسته حتى وجدته،وجاء القوم الذين كانوا يرحلون لى بعيرى وقد فرغوا من رحلته،فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع فاحتملوه،فشدوه على البعير،ولم يشكوا أنى فيه،ثم

أخذوا برأس البعير فانطلقوا به،فرجعت إلى المعسكر وما فيه من داع ولا مجيب،قد انطلق الناس.

فتلففت بجلبابى ثم اضجعت فى مكانى،وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلى،فوالله إنى لمضجعة إذ مر بى صفوان ابن المعطل،وقد كان تخلف عن المعسكر لبعض حاجته،فلم يبت مع الناس،فرأى سوادى فأقبل حتى وقف على،وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب،فلما رآنى قال:إنا لله وإنا إليه راجعون ظعينة رسول الله ...ما خلفك يرحمك الله؟فما كلمته،ثم قرب البعير وقد استأخر عنى وقال:اركبى.

فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب الناس،فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس،فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بى،فقال أهل الإفك ما قالوا،فارتج العسكر والله ما أعلم بشئ من ذلك.

ولم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة،ولا يبلغنى من ذلك شئ،وقد انتهى الحديث إلى رسول الله وإلى أبوى،لا يذكرون لى منه قليلا ولا كثيرا،إلا أنى قد أنكرت من رسول الله بعض لطفه بى،كنت إذا اشتكيت رحمنى ولطف بى،فلم يفعل ذلك بى فى شكواى تلك،فأمكث ذلك منه،حتى وجدت فى نفسى فقلت حين رأيت ما رأيت من جفائه لى:يا رسول الله لو أذنت لى فانتقلت إلى أمى فتمرضنى،قال:لا عليك.

فانتقلت إلى أمى ولا علم لى بشئ مما كان،حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة،وكنا قوما عربا لا نتخذ فى بيوتنا هذا الكنف التى تتخذها الأعاجم،نعافها ونكرهها،إنما كنا نذهب فى فسح المدينة،وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن،فخرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح،وكانت أمها خالة

أبى بكر،فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرت فى مرطها فقالت:تعس مسطح،قلت:بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا،قال:أما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر،قلت:ما الخبر؟

فأخبرتنى بالذى كان من قول أهل الإفك،فو الله ما قدرت على أن أقضى حاجتى،ورجعت،فو الله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى،وقلت لأمى:يغفر الله لك تحدث الناس بما تحدثوا ولا تذكرين لى من ذلك شئيا،قالت:أى بنية هونى عليك الشأن فو الله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليه.

وقد قام رسول الله فى الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى،ويقولون عليهم غير الحق،والله ما علمت منهم إلا خيرا،ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا،وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى.

ثم دخل رسول الله على وعندى أبواى،وعندى امرأة من الأنصار وأنا أبكى وهى تبكى،فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:يا عائشة إنه قد بلغك ما قد بلغك من قول الناس،فاتقى الله،وإن كنت قد قارفت سوءا بما يقول الناس فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده.

بكت عائشة بكاء البريئة وأبت أن تتوب مما لم تفعل،وفوضت أمرها إلى الله حتى نزل القرآن ببراءتها،ويقول نظمى:«هل هذا المسلك الرزين غاية الرزانة مسلك رجل يربطه بهذه الزوجة اشتهاء مستعر منحرف مما يلحدون؟،ليس هذا هياج ذى هوى متأجج ورغبة حارقة،بل هذا وقار أب يترفق بابنة صغيرة السن،فلا يفاتحها فى أمر يقض مضجعه ويجرح كرامته أيما جرح،وهو من هو؛لأنه وجدها مريضة وكان

أقصى ما فعله أنه لم يدللها كعادته حين تمرض،وما كان بوسعه ولا وسع غيره أن يفعل فى هذه الأزمة العصيبة،هذا أسلوب الأب العطوف ولا مراء،وشتان هذا العطف الأبوى الذى بلغ أقصى ما تطيقه الطبيعة البشرية من التماسك ومن الترفق،والذى صوروه به من تعلقه بعائشة تعلق رجل شهوان يتلذذ بانتهاك الطفولة».

(١٥)

ويختم نظمى لوقا دفاعه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ضد ما لحق به فى حياته الخاصة بعبارة قصيرة وضع لها عنوانا دالا هو :وليذكر الذاكرون،يقول:«وليذكر الذاكرون أن التاريخ كم وعى من رجالات أصحاب رسالات،كانت لهم الزوجات الكثيرات،بالعشرات وبالمئات،وكانت لهم السرارى بغير عدد،ولم يقد فيها لهم من فضل ظاهر،ولا فيما لدعواتهم من أثر فى العقول والسرائر،وهل نسى الناس داود وسليمان وغير داود وسليمان؟،فكيف لا يحسب هذا التعدد اليسير إلا على محمد بن عبد الله دون سواه؟إلا أن الميزان المستقيم لا يكيل بمكيالي،ولا يحرم على زيد ما يرى أضعافه غير حرام على عمرو؟ومن يظلم فإنما نفسه يظلم،ومن يجور فى الحكم إنما يضير تفكيره وضميره...وسلام على الصادقين».